الحب في الأدب الصوفي

أ/ قايد سليمان مراد
أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة وهران

قام عنصر الحب بدور مهم في الآداب المختلفة على مر العصور، فكان حديث الشعراء وموضوع كثير من القصص و مجال مسرحيات عديدة، ولكنه لم يبلغ في عصور الآداب الأوربية ما بلغ في عهد الرومانسيين، حقا قد مهد القرن الثامن عشر < 18 > لرفع شأن هذه العاطفة في الأدب. و النظر إليها نظرة جديدة مثلا في أدب < ستيرن و رتشاردسن>.

فكان الحب في بعض الإنتاج الأدبي فضيلة أو طريقا إلى الفضيلة، بعد أن كان الأدب الكلاسيكي هوى من الأهواء، و مجلبة للشرور لا يوصف إلا ليحذر منه. وكان هذا التحول في الأدب في القرن 18 .كما ذكرنا . ثمرة الفلسفة العاطفية، ثم الرجوع إلى الفلسفة الافلاطونية في الحب، و لكن الحب مع ذلك ظل طوال القرن الثامن عشر وسيلة لوصف الفضائل الخلقية، مع احتفاظه بطابع أرستقراطي[1].

يعتقد الرومانسيون أن المرأة ملك هبط من السماء، يطهر قلوبنا بالحب و يرقى بعواطفنا، ويذكي شعورنا، و يشجعنا على النهوض بواجباتنا المختلفة.

وللحب في أدب الرومانسيين معنى آخر هو حب الإنسان للإنسان وخاصة وأنهم لا يضيقون بالمجتمع، إلا لما يزخر به من الظلم للفرد.

علاوة على هذا كله تعددت مذاهب الرومانسية في العقيدة وذلك تبعا لإدراكاتهم الحرة والفردية، { و دون ضغط على القارئ بتفاصيل فلسفية، و الكثير منهم كان موحدا على < الطريقة الفولترية > و منهم من كان يعتقد أن في الطبيعة نفسا روحيا هي المبدأ الخالق. مثل< شيلي > < و فيني و ميشيليه >، و آخرون أرادوا أن يجددوا في المسيحية أو في الكاثوليكية ليقربوا الدين في معناه الخلقي العام إلى النفوس، ولكنهم كانوا أحرارا في تفكيرهم تجاه الكنيسة و العقيدة المسيحية.

فأنكرتهم الكنيسة، وقد ذهبت ألوانا من التصوف المسيحي في الرومانسية، الألمانية التي كانت ترمي إلى جعل الشريعة نوعا من < الشعر السامي > الذي يصل الإنسان إليه بالخيال والرياضة و التأمل الشعري. و من هؤلاء < نوفاليس > الذي يعتقد في وحدة الفكر والمادة، و في حقيقة الأخيلة الصادرة عن العبقرية، وان الإشراف الروحي هو الذي يقودنا إلى وحدة حقيقة العالم وان عواطفنا المبهمة الغامضة هي دليل قاطع على وجود الحقيقة[2].

كان الرومانسيون يؤمنون بضرورة العقيدة، و لكنهم يتطرفون في تفكيرهم، و يؤولون و يغالون، أو يتطاولون و يتمردون، و لذا تفرقوا طرائق كثيرة في موقفهم من الدين ذاته، أو من المسيحية، أو من الفلسفة فيما ضمنته للإنسان من سعادة و فيما وفرته للفكر من الانطلاق، الرومانسيون لا ينكرون وجود الله عز وجل ولكنهم يتطاولون عليه، ويتمردون على سلطانه ويرجع ذلك إلى أنهم في ضيقهم وحزنهم، كانوا يشعرون بحاجتهم إلى العقيدة التي بنوها على أساس عاطفي، وكانوا يجدون في البيعة دعامة لعقيدتهم وهذا ما يختلف اختلافا جوهريا و مبدئيا مع التصوف الإسلامي.

الحب الصوفي

إن الحب الصوفي كان محور الدراسات النفسية من خلال التصور البيولوجي وأثره على النفس فهذه الرغبة لها نزوعها الجنسي الايروسي بالمعنى < الفرويدي > أي المتمثل في حركة اللبيدو، و عن هذا النزوع تتحدد الرغبة النفسية، إن عدم التحكم في هذا النزوع هو الذي يؤدي إلى اضطراب الإنسان، ومعنى ذلك أن هناك ربط مباشر بين الاضطراب الجنسي والنفسي ذلك أن الطاقة الغريزية التي تتميز بها الرغبة معرضة للاضطراب إذا لم تجد قدرتها على الإشباع، هذا الاتجاه الجنسي للرغبة هو الذي درسه الطب النفسي اهتم به و بالأعصاب على وجه العموم، وبالهستريا بشكل خاص.

إن أطباء الأعصاب ربطوا بين الهستيريا و الجانب الجنسي < فشاركوط > من أبز المهتمين بهذه الدراسات النفسية حيث يربط بين أعراض الهستيريا و الأوجاع التي تظهر في منطقة المبيضين و الغدد الثديية بوصفها قاعدة لتلك الأعراض كسبيل لتحديد العلاج بضبط هذا المرض المولد للقلق[3].

كما أن العامل الجنسي موجود في الهستيريا وان الدور الذي تلعبه الأفكار المتعلقة بالوظائف التناسلية لا يمكن أن يستهان بها.

بل أن كل انفعال جنسي يدعوه الهاجس التناسلي لان < فرويد> الذي اهتم بالدراسات في تحليل تأويله للأحلام < لقد استطاعت معرفتنا بالعصاب أن تدل لاحقا نظرتنا للحلم واستطاعت من جهة

أخرى أن تحكم تصوره للحياة النفسية برمتها، وذلك انه يميز في الكائن على أساس مجموعتين من الغرائز، غرائز تصدر عن طاقة الليبيدو و نزوعها محكوم وفق مبدأ اللذة و يستعير فرويد مصطلح من الايتيمولوجيا باليونانية و يحدد هذا النزوع للإنسان بأنه لا يشمل الغريزة فقط وإنما الدوافع الغريزية المشتقة منها، و إنما غريزة حفظ اللذات.

التي يجب أن تنسب إلى < الأنا > هذا الحب من الناحية النفسية الفرويدية.

أما حقيقة الحب عند المسلمين عامة وعند أهل الصوفية له تفسير آخر تختلف أصوله وأبعاده الفلسفية وعلى خلاف جوهري ومبدأ لما رأيناه عند العالم النفسي فرويد. و إن كنا نحترمه على أبحاثه و اجتهاده، فلا نوافقه كل الموافقة المطلقة لان الحب عند الصوفيين هو شيء مقدس ويطلقون عليه < مقام المحبة > لقوله تعالى{ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم و يحبونه}[4].

وقال تعالى أيضا { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}[5].

وروى الإمام احمد من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم < اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين و أن تغفر لي وترحمني وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك >.

فكأن الرسول عليه الصلاة و السلام طلب خالص الحب، وخالص الحب هو ان يحب الله تعالى بكليته.

و الحب هو اصل الإسلام و جوهره و روح التصوف و منبعه الحب في الإسلام قطب رحاه ومشرق أنواره. يقول الشيخ قدور بن عشور في هذا المجال في قصيدة تحمل عنوان: « سلسلة أمام البنات».

طال هذا الوعد علي عييت نرجى أش من يوم تجيني يا إمام البنات
يا درى نغنم شي ساعة معك فرجة ننتظر في خيالك يا تاج كل ميراث
ما مشوا في سطوة زينك بنات بهجة ليس مثلك في الدنيا و الزمان هيفات
نجمك اطلع وشعشع في النهار والدجى و ارتكب على نجمي تلفت به الأوقات
يا اللي زينتك ند الشمس في الهياجة والقمر في نحوا اربعطاش و الثريا
لا تكون عاطف عني تنقضى الحاجة دخيل عرضك كافيين باللقاء و المبات
نرحم يوصلك في ما مضى و ما جاء ما يخيب شي ظن رافع الدرجات

أوصاف هذي العذراء عالية بألف درجة بنات هذا الجيل يطيعوها خديمات[6] الحواجب

نونين معرقين بهـجة بين قب قوسين مطلعين حربات

الشفر مغنج و عيونها دعاجـة و الخدود مصابيح شعلو مع الفنارات

الشفيف ومبسم في الثغر فلجـة و الرقيبة فجرة يا عاشقين بهات

الزنود سيوف الطغاة من العلوجة والنوابغ فوق الصدر البهيج و نجات

السيقان من العاج يوهجوا في ظهجة و الرديف و خلاخل يتيهوا تيهـات[7]

يذكرنا هذا الشعر بشعراء العصر العباسي المنطلقين نحو الغزل الماجن، لكن هنا في هذه الأبيات الشعرية، هناك احتمالان، الاحتمال الأول يمكن أن يكون الشاعر قدور بن عشور قد قال هذه القصيدة في ريعان شبابه و في فترة المراهقة و رغم ذلك فان وصف جمال المرأة وصفا خارجيا متحشما ا مثال الشعراء العذريين، ولكن يبدو للقارئ للوهلة الأولى وكأننا أمام غزل يتجه بصفة خاصة إلى إظهار الجمال عند المرأة كما عبر عنه الشعراء المتفننين في غرض الغزل الحسي الماجن، لكن الاحتمال الآخر و الذي هو اقرب إلى الحقيقة هو أن الحب عند الصوفية يعبر عن المحبة التي يجب أن تكون خالصة لله تعالى ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، لان الله تعالى هو الذي أوجد هذا الجمال لقوله تعالى{ يحبونه كحب الله والذين امنوا اشد حبا لله }[8].

رغم أن الشاعر وصف كل التفاصيل وجميع أعضاء جسم للمرأة الخارجي، فهو يتعجب من خلق الخالق و تجلي جمال المخلوق في الخالق لان الله تعالى جميل و يحب الجمال.

ومن هنا اختلف رجال التصوف في الحب و المحبة أهي حال أم مقام فعند الإمام الطوسي <حال > وليست بمقام. و هي عنده ثلاث مراتب:

أ- محبة العامة: وهي المحبة عنده تتولد من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم. والدليل على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم < جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها >.

ب . محبة الصادقين و المتحققين: و هي تتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته و علمه وقدرته.

ج . محبة الصديقين والعارفين: و تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فكذلك أحبوه بلا علة.

وإذا كانت المحبة عند الإمام الطوسي حالا تأتي للعبد بلا تعمل أو تصنع أو بذل مجهود فإنها عند الإمام السهر وردي حال و مقام أو حب عام وحب خاص.

< يقول قد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل.

أما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح و هو الحب الذي فيه السكرات و هو الاختيار من الله الكريم لعبده و اصطفاؤه إياه، و هذا الحب يكون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل >[9].

و لما صحت محبتهم هذه، اخبر الله تعالى عنهم بقوله: { أذلة على المؤمنين }[10]. لان المحب يذل المحبوب.

و هذا الحب الخالص هو اصل الأحوال و إذا كان الحب عند الإمام الطوسي حالا وليس بمقام، فان الإمام الشعراني يرى أن الحب حال و مقام متفقا بذلك مع الإمام السهر وردي في أن المحبة مقام وحال. فالمحبة عنده مقام يصل العبد اليه بالمجاهدة و المثابرة بالتصفية و التنقية حتى يتحقق فيه قوله تعالى { و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا }[11].

و المحبة أيضا حال هبة من الله تعالى تأتي للعبد بلا تعمل و لا كسب قال تعالى { الله يجتبي إليه من يشاء و يهدي إليه من ينيب}[12].

إن حقيقة المحبة وهو الذي يحمي قلبه من محبة احد غير الله تعالى، هو الذي يقف حارسا على باب قلبه يطرد عنه الشيطان ووساوسه و النفس وهواجسها و الهوى و أمراضه.

يقول الإمام ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه المحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه من غير محبوبه ولا مشيئة غير مشيئته.

و يصور الإمام الشعراني رضي الله عنه حالة قلبه عند تحقيقه بهذا المقام قائلا:

و مما انعم الله تبارك و تعالى به على حمايته لقلبي أن تقيم فيه محبة احد من الخلق إلا عن أذنه وقد ضمن الله عز وجل حراسة كل قلب ليس فيه غيره، فيعطي ذلك العبد سيف التوحيد والعظمة و الجبروت و يجعله بواب قلبه، فكل من دنا من ساحة صدره لباب قلبه قطعت رأسه.

فإذا تمكن العبد من حراسة قلبه ضرب حول قلبه حواجز الغيرة وخنادقة العظمة، وأقام الحق جلا

وعلا دون قلب ذلك العبد حراسا من جنده حتى لا يخلص الشيطان أو النفس والهوى فلا ينقص له رأس مال بإقبال الخلق عليه و لا بترادف نعم الدنيا عليه.

صفات المحبيين

سأل جماعة من المشايخ الجنيد رضي الله عنه عن أو صاف المحبيين؟ فبكى وقال:

كيف أصف عبدا ذاهبا عن نفسه متصلا بذكر ربه قائما بآداب حقوقه ناظرا إليه بعين قله، وقد احرق قلبه نارا هيجته. . و المحب

هو الذي يذكر الله فلا ينساه.

. و يؤدي ما عليه من واجبات.

. و انكشف أمامه الحجب.

. فأصبح ربانيا في عمله و تركه.

و يصور ابن القيم صفات المحبين فيقول: < إنهم قوم امتلأت قلوبهم من معرفة الله وعمرت بمحبته وخشيته و إجلاله و مراقبته، فسرت المحبة في أجزائهم، قد انسهم حبه ذكر غيره، و أوحشهم انسهم به عمن سواه فدفنوا عن حب سواه.

يقول الإمام أبي الفارض. سلطان العاشقين، و إمام المحبيين، فيصف الحب لنا وصف من عرف فامن و عاش فجرب، عرف الحب و سعد به. فيقول:

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهـل

فما اختاره مضى وله عقـل

و عش خاليا فالحب راحتـه عنـا

و أوله سقم و أخره قتـل

ولكن لدى الموت فيه ضبـابـا

حياة لمن أهوى على بها الفضـل

نصحك علما بالهوى و الـذي أرى

مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلـو

فان شئت تحيا سعيدا فمـت بـه

شهيدا و إلا فالغرام له أهـل

فمن لم يمت في حبه لم يعش بـه

و دون اجتناء النخل ما جنت النحل[13]

و إذا خرجت الشهوات من القلب وحل فيه توحيد الله وحبه صار القلب صافيا وقال بعضهم :

شربت الحب كأسا بعد كـأس فما نفذ الشراب و ما رويـت

الرغبة الصوفية في الحب رغبة قلقة في نزوعها وفي اندفاعها حيث يعيش الصوفي باندفاع نحو صور التجليات في الكائنات الوجودية يعيشها بصمت في حدود العزلة و التفرد فيما هو محكوم عليه بالحديث و بالكلام إلى حدود التفلسف.

إن الصوفي في سفره المستمر و انتقاله بين صور تجليات الجمال الإلهي، خاصة في الأنوثة و في جمال الطبيعة، وفي ذات الكون العظيمة، ويدرك جيدا أن تحقيق الذات الإلهية أمر يعد من الأمور المستحيلة و مع ذلك فهو يظل ينزع إليها في سفره الأبدي، إنها تعبر عن موقف العاشق بالذات، يعيش هذه الاستحالة بمتعة فيما هو يؤسس لها في سلوكه و في خطابه، وهذا الحب ليس هو بالحب الافلاطوني أو العذري أو الدنجوانية.

فالحب الصوفي يكشف لنا عن المسافة التي تفصل العشق الصوفي عن الافلاطونية وسائر نماذج العشق الأخرى.

فالحب الصوفي هو عشق يقوم في أساسه على علاقة بينه و بين الفضاء الجمالي الذي تتحرك فيه الرغبة الصوفية.

إن العشق في المحيط الصوفي وفضائه ينقلنا من مستوى منطق التمايز و السلطة ومن التجربة الذاتية إلى مستوى أكثر انفتاحا بوصفه الفضاء الذي يتعامل معه الصوفي، فهو فضاء الصور أو التجليات الإلهية و جمالية هذا التلقي، و الواقع أن ابن عربي ذاته يحدثنا عن مستويات من الحب كوسيلة للإشارة عما يميز الحب الصوفي في مستواه الوجودي. يحلل ابن عربي في كتابه <الفتوحات > ثلاث مستويات للحب.

1 . الحب الطبيعي: هو الحب ليس حبا جنسيا فاحشا، انه حبا عاديا شائعا، رغم أن الجانب الجنسي هو الذي يستهلك الحب الطبيعي.

يتحدث ابن عربي عن حب الخيال وحب الحيرة. ويفسر ذلك بكون انه كلما كانت صورة المعشوق مفرطة في القرب من مخيلة العاشق شعر هذا الأخير بالانفصال و سبب ذلك الحب هو أن في هذا النوع

من الحب تصبح مسألة القوة و الضعف مرتبطة بسيطرة الصورة في المخيلة ثم أن قوة الحب الطبيعي تشجع المحب بين يدي محبوبه له لا عليه، فالمحب جبان شجاع مقدام فلا يزال على هذه الحالة ما دامت تلك الصورة موجودة في خياله[14].

هذا الحب في نظر ابن عربي محكوم بالزوال لسببين:

أ . انه يؤثر فيه القرب.

ب . انه حب من اجل ذاته لا من اجل المعشوق أي الذات.

إن الحب الطبيعي لا يحب المحبوب إلا لما فيه من الصفات فيحبه لنفسه لا لعين المحبوب ثم أن المقصود الرئيسي لهذا الحب هو المنفعة، ذلك أن الله عز وجل قد أوجد المخلوقات وفيها مختلف الغرائز.

إن رغبة العاشق في هذا النوع من الحب الطبيعي قد ترتفع إلى درجة معنوية و يضع ابن عربي الحب العذري في هذه الدرجة بالذات، وهذا ما يجعلنا نذهب إلى أن الحب الطبيعي هو حب العامة حيث يتراوح بين الجنس و الوجدان.

2 . الحب الروحي: و هو يتميز عن الحب الطبيعي لان كل واحد من الروحين مستفرغ الطاقة في الحب الآخر فمثل هذا الحب إذا تمكن من الحبيبين لم يشك المحب فراقه لمحبوبه لانه ليس من عالم الأجسام ولا الأجساد وهذا هو حب العارفين الذين يتمايزون عن العوام[15].

ابن عربي يميز الحب الروحي عن الحب الطبيعي، لان الحب الطبيعي ينسلخ من الإحساس بالروح فهو حب من اجل الحب، أما الحب الروحي أي الصوفي فرغم احتوائه على الحب الطبيعي لكنه لم يتوقف عند هذا الحد بل يسمو بحبه إلى مستوى الروح الذي هو ارفع من الحب العادي انه حب الله وحب ذاته.

3 . الحب الإلهي: الحب الإلهي هو التعلق بالله و ذاته تعالى بهدف رضاه و تقواه و هو حب الله للعالم و الموجودات وهو حب أزلي يتجلى في الجمال الإلهي و يتجلى ذلك في كل ما هو جميل بالاسم الجميل و هو ناتج عن إرادة الله عز وجل فالصوفي يتجه للذات الإلهية.

الحب الصوفي تجربة في مقابل كل خطاب عقلي، حيث أن كمال درجة العارف احتراق و تشوق بالمحبة، إن لحظة العشق عند الصوفية هو ما يمكن عيشه على مستوى التجربة حتى و إن كان العاشق الصوفي محكوم عليه بالتعبير عن حبه إلى درجة الهذيان فهو عشقه بالذات الإلهية، فهو سفر الذي يؤدي بالتوحيد بين العبد وربه.

إن الحب الصوفي يكشف عن ميول روحي و جمالي ذلك أن تعلق الصوفي في حبه يتجه إلى التجليات الإلهية في الوجود وخاصة في الطبيعة و المرأة، يريد الإمساك بالطابع الجمالي وهذا التطلع يعلن عن الذات في عدة مستويات:

1 . مستوى تلقي الصور: و الذي يعبر عنه عادة بالكشف الخيالي كما يشير إليه ابن عربي.

2 . مستوى التعامل: يتعامل مع رموز هذه الصور في تجلياتها المختلفة في الطبيعة وفي الأنوثة.

3 . مستوى عشق الصوفي للذات الإلهية في كل الصور: إن الكون بالنسبة للصوفي هو عبارة عن رموز توحي إليه بالجمال الطبيعي، و هي مرتبطة في خياله الصوفي المفعمة بالتجليات الإلهية.

و بعبارة أدق إن العشق عند الصوفية يعتبر الحد الأقصى لدرجات المحبة الإلهية ثم أن الإسلام لم يعارض الحب و الحياة العاطفية وإنما نظمها ومنهجها وضبطها كما انه لم يهمل الجانب العاطفي في الحياة الإنسانية العامة وإنما جعل من الحب دافعا نحو الحب والفضيلة والصلاح المشترك وفي ذلك حكم إلهية تتعلق بشرف الأسرة وحصانة المرأة وشرف الإنسان وعفة الضمير الخلقي الحي.

إن < الغزل الإلهي > كما عبر عليه الصوفية ظهر منذ العصر الجاهلي، بشكل يختلف في المظهر و الباطن عن التصوف المعتدل وكان طابعه العام طلب المتعة ومرضاة الشباب والظفر بلذات الحياة في عهد الصبا، كما يقول . محمد غنيمي هلال . في الأدب القارن . وكثيرا ما كانوا يصنفون هذه الفترة اليانعة من العمر في مبدأ قصائدهم ويقدمون بها الغرض الأصلي من القصيدة وهو الجدير بأن يتوجه إليه هم الرجال، ولذا كثر ما كانوا ينتقلون من التمهيد كلمة < دع ذا > ولا يرادفها ما يقوله امرؤ القيس مثلا:

فدع ذا وسل الهم عنها بحسـرة

ذمول إذا صام النهار و هـجرا

وكانوا لا ينكرون أن يستجيب المرء إلى داعي الصبا في عهد الشباب حتى إذا ولى ذلك العهد كما يقول دريد بن الصمة في رثاء أخيه:

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه

فلما علاه قال للباطل ابعـد

على الرغم من أن الطابع العام كان طلب اللهو والمتاع، قد كان العربي مع ذلك يحفل بالعاطفة لأنه

يشارك فيها حبيبته، و لأنها مظهر لخلق الفروسية، وجانب جوهري من جوانب نفسية. لهذا كان من المألوف أن يبكي الفارس من الوجد . يقول امرؤ القيس:

و إن شفائي عبرة مـهراقة

فهل عند رسم دارس من معـول

و قد حفلت آراء النقاد للأدب بإيراد مظاهر الوجد والصبابة، وبقايا ذكرها في النفس والوقوف على أثارها في رسوم ديار الحبيب.

فذكروا الدقائق والمعاني المناسبة في وصف الوقوف على الديار والتسليم عليها، وذكر تعفية الدهور و الرمال و الرياح لها. و سؤالها و استعجامها، ثم ما يخلف الطاعنين في الديار من الوحش و الدعاء لها بالسقيا، وذكر الأنفاس و الحرق والزفرات وزوال الصبر والتجلد وهي معان أفاض فيها الجاهليون ومن تابعهم مما ينم عن مكانة هذه العاطفة في نفس العربي، وأثر الاعتداد بالعاطفة على الرغم من نشدانهم المتعة واللهو.

وقد استمر هذا النوع من الغزل في عهدي أمية، حني عرف في بادية الحجاز وأطرافها الغزل الذي يتحدث عن الحب العفيف، و عما يلاقيه المحب من عذاب وتباريح، كما اهتم هذا الغزل العفيف بأمرين هما:

1 . صدق العاطفة.

2 . صدق العقيدة.

يجب عينا ألا نغفل الجانب البيئي للحالة الاجتماعية العربية التي كانت ممهدة لوجود هذا النوع من الغزل، بحيث أن الإسلام كان أقوى العوامل في ظهور هذا النوع من الغزل إذ خلق إدراكا جديدا للعاطفة، فيما دعا إليه من جهاد النفس، ومقاومة الهوى، وفيما هيأ لروح الزهد بتهوينه من شأن الدنيا، و تهويله لعذاب الآخرة، كانت مقاومة النفس للهوى اكبر ظاهرة تجلى فيها زهد هؤلاء الغزليين في المتاع الحسي، حتى كان بعضهم من الزهاد الأتقياء يعتكفون في المساجد للتعبد، فهذا عبد الرحمن بن أبي عمار الشهير بالقس، وكان من اعبد أهل مكة، قد هام بسلامة المغنية، قالت له يوما: أنا احبك. فقال: وأنا والله احبك...قالت وما يمنعك ؟ فوا الله إن الموضع لخال، قال: أني سمعت الله عز وجل يقول { الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين}[16]. وأنا اكره أن تكون خلة ما بيني و بينك تئول عداوة[17].

هذه الروح الاسلامية ظهرت في مجتمع نهل من عمق ومصدر الدين وتعاليمه، وهذا ما اظهر فيما بعد الحب الصوفي . الذي قلنا من قبل قد ظهرت إرهاصاته في العصر الجاهلي وان اختلف عنه بحكم الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية آنذاك . يمكن أن نقول على هذا حب، ونسميه ب < الحب الفلسفي > لأنه يتجه إلى الجمال لينتقل من ورائه إلى معاني الحب الروحي . وكما يضيف قائلا غنيمي هلال بقوله . وقد تأثر أصحابه ابلغ تأثر بآراء أفلاطون في الحب و الجمال، ويرى هؤلاء أن الهيام بالجمال الجسدي، والوقوف عند حدوده من شأن العوام والجهلة، الذين إذا رأوا مصنوعا حسنا، أو شخصا تشوقت نفوسهم إلى النظر إليه، و القرب منه والتأمل له لا يتجاوزون في نظرتهم حدود المادة و غاياتها الدنيئة، وليس الحب الحق إلا باعثا من أقوى البواعث على التمسك بالفضائل، والوقوف على الأخلاق الحميدة وتلقينها.

العشق في أسمى صوره ارتقاء من المحسوس إلى المعقولات، و من الأجسام إلى الأرواح، نتيجة لتهذيب النفوس.

وارتقائها ورياضتها إذ تندرج من حب الأشكال إلى حب الصور المجردة في عالم الأرواح، إذ أن جميع المحاسن والزينة ما هي إلا نقوش و أصباغ ورسوم قد زينت لها ظهور الأجسام عندما تظهر إليها النفوس الجزئية التي تحن إليها وتتشوق لها، لا هياما بها في ذاتها، كما يحب الأطفال الدمى واللعب، انه حب البراءة الصافي، ولكن لدلالاتها ومعانيها، فالحكماء هم الذين إذا رأوا صفة محكمة أو شخصا مزينا، تشوقت نفوسهم إلى صانعها الحكيم ومصدرها الرحيم، وحنت اليه وتعلقت به، ومن هنا قال الحكماء: إن الله هو المعشوق الأول، ولا يستلزم حب الله والهيام به على هذا النحو تجسيما، لان الله يجل عن الشبيه والصورة، وإنما يرشد الجمال الحسي إليه، لأنه مصدره وهو ذو الجمال المطلق.

هكذا يرى الصوفية فلسفة الجمال ومختلف معانيها الروحية م وراء الجمال الحسي، متخذين من الجمال المادي وسيلة للوصول إلى الجمال الروحي الإلهي عن طريق التفكير في الخير المطلق المنزه عن الشر، فكانت لأشعارهم ومعانيها الغزلية روعة وجدة لا سبيل إليهما إلا ما يتجاوز به الجمال الحسي.

كانت أشعار الصادقين منهم في عاطفتهم الروحية معان ذات وجهين:

. فظاهرها منصرف إلى الوسيلة في الجمال الحسي.

. وباطنها مقصود به الغاية في الجمال الخالد.

كما قال الشاعر الصوفي الشيخ قدور بن عشور الزرهوني في ديوانه:

طال هذا الوعد علي عيت نرجى

أش من يوم تجيني يا إمام البنات

الحواجب نونين معرقين بهجة

بين قب قوسين مطلعين حربات

الشفر مغنج و عيونها دعاجة

و الخدود مصابيح شعلوا مع الفنارات

هكذا تميز جوهر الغزل الصوفي كظاهرة عني بها فلاسفة الصوفية و شعراؤهم، وهو يعبر عن مبادئ فلسفتهم وعقائدهم وعاش لها هؤلاء الصوفيون، وكانوا يعبرون فيها عن عقيدتهم وإيمانهم، لأنهم أدخلوها في مبادئ الدين الإسلامي عن طريق التأويل والرمز، مما سمح لهم أن يتأملوا في جمال الله عز وجل. كما قال الشيخ قدور بن عشور:

أناي في حماك قلت لها يا ولفي مريم

أرفق من حالي يا الباهية تتخفف سقامه

من ذيك النظرة الباشرة حين بسلام

قالت لي مكمولة المحاسن عين العارم

أوصف لي زين وجوهره اعقد في ترواميه

وتكلم نصغى لمنطقك لو كان نجام

قلت لها يا طلعة القمر تدريني حاكم

والحكما يخشوا حكمتي لا زايغ بأقدامه

سالي أهل المعنى يخبروك يا أصيل الريام

و الصدر الصافي في الرخام بهيج مرخم

كأنه روضات ذا أللليم شي نوابغ بزغو في مقامو

و البدن رهدان والخدلج عليه زحام

هذا هو إلا العشور في أوصافك عندك توهم

يامحنتي وسباب ليعتي قيمك في عشرة أقسام

يحسن عوني من هواك نبكي بدموع سجام

هذا حال الملسوغ مثلي يا فاهـم

لما يلقى الزين ينخلج تتكسر عظامـه

من لا جرب ما يوافق في معنى وكلام[18]

المحبة الصوفية هي حقيقة الحب وأصحاب المحبة على ثلاثة أحوال: .

المحبة الفعلية وهي الإحسان إلى الله تعالى.

. حال المحبة الصماتية يتولد من النظر القلب إلى عظمة الله تعالى وهي محبة الخواص الصادقين. . حال المحبة الذاتية هي المعرفة بقدم حب الله وهي للصدقين والعارفين.

ثم أن النفس الجزئية المجسدة هي على ثلاثة:

. النفس الشهوانية النباتية، وعشقها يكون للمأكولات و المشروبات و المناكحات.

. النفس الغضبية الحيوانية و عشقها يكون نحو القهر والغلبة وحب الرئاسة.

. النفس الناطقة و عشقها يكون نحو المعرف و اكتساب الفضائل.

هذه القوى الثلاث مع النفس الجزئية كمثل شجرة لها ثلاثة فروع تميل إليها.

واعلم أن من قام في العالم بأمر الله عز وجل ونهيه ومراده، ونهيه في عباده وبلغهم رسالاته وصدق عنه في مقالاته فهو وجهه ولسانه ويده لقوله تعالى:{ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى}[19].

و من كان لهذا الشخص مصدقا ولقوله محققا، و لأمره متبعا وعن نهيه مرتفعا، و لأمره خاضعا وليه واقفا.

كان بالقرب منه أولى، و أوضع حكمته أهلا و هو شك يورثه مقامه من بعده[20].

القلب اليقظان و المشاعر الجياشة، وجعل للإيمان عاطفة دافقة بالحب و البر إلى جانب انه نظر يتسم بالسداد و الصواب. الإسلام المكتمل فهو ليس نظرية علمية أو اقتصادية وليس فكرة مجردة عن الله عز وجل، مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصّور والاستدلال[21].

انه قلب انفتحت أقفا له و انفسحت أرجاؤه و أشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه متشبع لآثاره في كونه عاشق للخير مبغض للشر يمتدح مع كل شيء حسن، وقد خاطب الله المؤمنين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال{و لكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة} [22].

الإحالات

[1] . محمد غنيمي هلال . الرومانسية . دار الثقافة بيروت . دار العودة . سنة: 1973 . ص .185 .

[2] . المرجع . نفسه . ص .167 .

[3] S FREUD - nouvelles - conférences - sur - la - psychanalyse - TRAD - ANNE - BERMAN - paris - Gallimard - 1971 - p : 39 -

[4] . سورة المائدة. الآية . 54

[5] . سورة آل عمران . الآية .31

[6] الديوان . ص . 723.

[7] الديوان – ص- 724

[8] . سورة البقرة . الآية . 165 .

[9] . عبد الرحمن عميدة . التصوف الإسلامي . منهجا و أسلوبا . ص- 93 .

[10] . سورة المائدة . الآية . 54

[11] . سورة العنكبوت . الآية . 79 .

[12] . سورة الشورى . الآية . 13 . < يجتبي: يقبل إلى طاعته >

[13] . المرجع نفسه . ص . 97 .

[14] محي الدين ابن عربي – الفتوحات المكية – ج – 2 – دار صادر بيروت – ص- 111-

[15] المصدر نفسه – ص – 193.

[16] سورة الزخرف – الآية – 67

[17] محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – ص 195-

[18] . الديوان . ص . 739 .

[19] . سورة . الأنفال . الآية .17 .

[20] . من تراث إخوان الصفا . جامعه الجامعة تحقيق عارف تأمر دار مكتبة الحياة . بيروت . ص . 182 .

[21] . محمد الغزالي . ركائز الإيمان . ص .103

[22] . سورة الحجرات . الآية .7 . 8 .